الفصل الحادى والعشرون

بعد القادسية

خرجت الشمس من خدرها ، وفى نفس الوقت خرج رجل من داره فى يثرب ، وراح يضرب فى طرقاتها حتى بلغ خارج المدينة ، فأخذ يمد بصره إلى الأفق البعيد يستكشف الطريق لعله يلمح أحداً قادما . وكان كلما لمح أحداً أسرع إليه ، وأخذ يسأله من أين أتى ، وكان غالباً مايترك القادم عقب سماع رده ، فما كانت الجهة القادم منها لتعنيه ، إنه يسأل عن أخبار جهة بعينها تهمه أخبارها حتى لأنه كان يخرج يومياً من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، يسأل الركبان عن أهل تلك الجهة . واستمر الرجل يتطلع إلى الأفق البعيد ، ولمح شبحاً على مدى البصر يتحرك ، فراح يرقبه ، وأخذ الشبح يقترب رويداً رويداً ، إنه رجل على ناقته يخد فى السير صوب يثرب ، فأسرع صاحبنا إليه ، فلما بلغه سأله :

ـــ من أين ؟ .

ـــ من القادسية .

فقال صاحبنا بلهفة :

ـــ ياعبد الله حدثنى .

ـــ هزم الله العدو ، وانتصر المسلمون ، وقتل رستم والجالينوس وقواد كثيرون ، كانت معركة ما شهد العرب مثلها ، وغنمنا غنائم لاحصر لها .

واستمر القادم يصف مادار فى القادسية وهو على ناقته ، والرجل

يخب معه ويستخبره ، وبرقت أسارير الرجل لما يسمع ، وانطلقا يتحادثان حتى دخلا المدينة ، فراح الرجل السائر على قدميه يسلم على الناس ، فيرد الناس عليه السلام ، وعليك السلام يا أمير المؤمنين ، فلما رنت « يا أمير المؤمنين » فى أذن الراكب ، نزل عن ناقته ، وتقدم من عمر وقال :

— فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين

— لا عليك يا أخى .

ومد الرجل يده ، وأخرج كتاب سعد ، ودفع به إلى عمر وهو يقول :

— أنا سعد بن عميلة الفزارى ، قد بعثنى سعد إليك بكتاب .

فتناول عمر الكتاب ، وراح يقرأ : « أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل ، وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار ، وعلى طفوف الآجام وفى الفجاج ، وأصيب من المسلمين فلان وفلان وفلان ، ورجال من المسلمين لا نعلمهم ، الله بهم عالم ، كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم أساد الناس لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة ، إذ لم يكتب لهم » .

وانطلق عمر إلى المسجد ، وقام فى الناس فقرأ عليهم الفتح فسرت فى المدينة موجة غبطة وسرور .

* * *

قسم سعد الفىء فى الناس ، فكان نصيب الفارس ستة آلاف ، والراجل ألفين : وجاءه من عمر أن يفضل أهل البلاء ، فأعطى كل منهم

خمسمائة ، ثم جاءه من عمر : « أن رد على المسلمين الخمس ، وأعط من لحق بك ممن لم يشهد القادسية » فراح سعد يوزع على الناس ، وبقى عنده شئ كثير لم يدر مايصنع به ، فأرسل إلى عمر يستفسره ، فقال له عمر أن يوزع على حملة القرآن ؛ وفيما كان سعد ينفذ أمر أمير المؤمنين،دخل عليه عمرو بن معديكرب ، وبشر بن ربيعة ، فالتفت سعد إلى عمرو وقال له:

— مامعك من كتاب الله تعالى ؟ .

— إنى أسلمت باليمن ، ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن .

فأبى سعد أن يجعل له من مال الحفاظ نصيباً ، والتفت إلى بشر وسأله عما معه من كتاب الله ، فاعتدل بشر وقال :

— بسم الله الرحمن الرحيم .

وصمت فقد كان هذا كل مايحفظ من القرآن ، فضحك القوم ، ورفض سعد أن يجعل له من هذا المال نصيبا ، فلم يرض عمرو عن هذا القرار ، فكيف يحرم وقد أبلى فى المعركة بلاء شديداً ، فالتفت إلى سعد وقال :

إذا قتلنا ولا يبكى لنا أحد قالت قريش ألا تلك المقادير
نعطى السوية من طعن على نفد ولا سوية اذ نعطى الدنانير

وقال بشر :

أنخت بباب القادسية ناقتى وسعد بن وقاص على أمير
وسعد أمير خيره دون شره وخير أمير بالعراق جرير
تذكر هداك الله وقع سيوفنا بباب قديس والمكر عسير
عشية ود القوم لو أن بعضهم يعار جناحى طائر فيطير

فأطرق سعد لما سمع هذا ، إن مايقولان حق ، فرأى أن يكتب إلى عمر كتاباً بأمرهما وما دار بينه وبينهما ، فكتب الكتاب وأرسله الى عمر ، فكتب عمر إليه : أن أعطهما على بلائهما ، فاستدعاهما سعد ، وأعطى كل واحد منهما ألفى درهم ، فشاع الرضا فى نفسيهما .

الفصل الثانى والعشرون

بابل

« أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال »
قرآن كريم

تصرم شهران بعد القادسية ، وأبل سعد من مرضه ، وانتظر إذن أمير المؤمنين بالمسير ، إنه ليتوق إلى فتح المدائن عاصمة كسرى ، وإنه ليشتاق إلى دخول إيوانه ، ليت إذن أمير المؤمنين عمر يبلغه قريباً ، إذن لانطلق بالناس وهم فى غمرة حماسهم ، وأوج مجدهم ، وعز نصرهم ، ولا كتسح أمامه كل شىء ، ولطوى ملك كسرى طياً ، ولارتفعت أصوات المؤذنين فى تلك المملكة المترامية معلنة زوال الوثنية ، مؤكدة عبادة الله وحده لا شريك له .

وجاء كتاب عمر أن انطلقوا إلى المدائن ، وأمره أن يخلف النساء والعيال بالعتيق ، ويجعل لهم كنفاً من الجند ، وأن يشركهم فى كل مغنم مادامو يخلفون المسلمين فى عيالهم ، فترك سعد النساء وعين لهن الحرس ، وأمر زهرة بن الحوية بالانطلاق إلى الحيرة ، فخرج زهرة ومن معه ، وانطلقوا صوب المدائن ، فلما انتهوا إلى برس ، وجدوا جيشاً من جيوش الفرس ، فدارت معركة بين الجيشين لم تدم طويلا ، فقد كان المسلمون مسلحين بكل أنواع السلاح والكراع التى غنموها فى القادسية ، فلم يلبث جيش فارس أن فر ليلحق بمن بقى ببابل من جيوشهم .

نزل زهرة فى برس ، وجاءه دهقانها ، وأخبره أن الفرس يتجمعون

ق بابل ، فقد اجتمعت فلال القادسية وبعض جنود يزدجرد ، وعقدوا العزم على مطاولة المسلمين ، وخشى زهرة من أن يتمكنوا من لم شعثهم ، فكتب إلى سعد بالخبر ، وأنبأه أنهم تجمعوا حول الفيرزان ، فلما بلغ سعد الكتاب ، ولى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص عمل خالد بن عرفطة ، وجعل خالداً على الساقة ، وأمرهم بالانطلاق إلى برس للانضمام إلى زهرة ، فخرج الجيش مجهزاً بالعتاد والسلاح ، ذلك السلاح الذى غنموه من الفرس فى القادسية ، وانطلقوا ليقاتلوهم بسلاحهم ، وعقب خروج هاشم ، خرج سعد ومن معه ، واجتمعوا جميعاً فى برس ، وقدم سعد زهرة وأتبعه هاشما ، وما أن التقى الجمعان فى معركة ، حتى انهزم الفرس ولاذوا بالفرار ، وانطلقوا على وجوههم ، وفر الهرمزان ، إلى الأهواز ، وسلب كل ما كان يقع فى يده ، وخرج معه الفيرزان وانطلقا إلى نهاوند ، وكان بها كنوز كسرى فسلباها وعبرا بهرسير إلى جانب دجلة الآخر ، وقطعا الجسر .

بلغت أنباء انتصارات المسلمين كل مكان ، فحز ذلك فى نفوس الفرس ، فاجتمعت كتيبة من كتائبهم تدعى بوران ، وراحوا يقسمون : « والله لا يزول ملك فارس ما عشنا » ، وراحوا يرددون قسمهم كل يوم ، وثبتوا فى مظلم ساباط ، وكان معهم أسد من الأسود التى ألفها كسرى ، فعقدوا العزم على أن يدعوا ذلك الأسد يقابل الأعداء ، وحسبوا أنه سيرعبهم ، وينهاهم عن عزمهم ، وما دروا أن بين المسلمين أسوداً لا تهاب الردى ، بل رجالا أشجع من الأسود الكواسر .

وترامت أنباء تلك الكتيبة إلى سعد ، فقدم زهرة ، ثم أتبعه هاشما ، فانطلق هاشم حتى بلغ مظلم ساباط فانتظر هناك حتى لحق سعد به ، فانطلق الجميع إلى المعركة التى كانت دائرة بين جيش زهرة وكتيبة بوران ، بلغ جيش هاشم وجيش سعد الميدان والمعركة دائرة على أشدها ، ولمح هاشم

كالأسد يشيع الفوضى فى صفوف المسلمين ، ويبادر الناس فينفرو مذعورين ، فاندفع بصوبه ولكن حصانه جفل ، فنزل عنه ، واستل سيفه وتقدم نحو الأسد ، ثم ضربه ضربة هائلة فقتله ، فكبر الناس ، فارتج المكان ، ودب الذعر فى نفوس الفرس ، وخلعت قلوبهم ، فولوا الأدبار مدحورين ، فاتجه سعد الى هاشم ابن أخيه وقبل رأسه ، لقد وقى المسلمين شر أسد فارس ، ونجاهم من هلاك شديد . ونزل سعد إلى مظالم ساباط ، وراح يتتبع بنظره هؤلاء القوم الفارين الذين أقسموا بالله ألا يزول ملك فارس ما عاشوا ، فغمغم ، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال .

ذهب من الليل هدأة ، ونادى منادى سعد : « إلى بهرسير » ، فامتطى الناس خيولهم ، وخرجوا إلى بهرسير ضاحية المدائن عاصمة الفرس ، وكان كلما قدمت خيل عليها . كبر الناس ، واستمر تكبير المسلمين حتى نجز آخر من كان مع سعد .

نزل المسلمون على بهرسير ، وكان عليها خنادقها وحرسها ، وعدة الحرب ، وراح أهل فارس يرمون المسلمين بالمجانيق ، فاستصنع سعد أحد الفرس المجانيق ، ونصب على أهل الضاحية عشرين منجنيقاً ، وراح المسلمون يضربون الناحية ، وكان بعض الفرس يخرجون للقتال بين الحين والحين . وأخيراً خرجوا فى رجالة وناشبة وتجردوا للحرب ، وتبايعوا على الصبر ، فقاتلهم المسلمون فلم يثبتوا لهم وولوا مدبرين ، ودخلوا حصون المدينة ، وضرب المسلمون عليهم الحصار ، وطال الحصار ، ونال الجهد من المحاصرين . وفى يوم أشرف رسول ، فتقدم سلمان الفارسى ليكلمه ، فقال الرسول :

— إن الملك يقول لكم : هل لكم فى المصالحة على أن لنا ما يلينا

من دجلة وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم . أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم .

فقال سلمان :

— إنى منكم فى الأصل ، وأنا أرق لكم ، ولكم فى ثلاث أدعوكم إليها : ما يصلحكم أن تسلموا ، فإخواننا لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإلا فالجزية ، وإلا نابذناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

وانتظر المسلمون ثلاثة أيام ، وأبى الفرس أن يجيبوا الى شىء فاستأنف سعد قتالهم ، فلم يجدوا أمامهم إلا الفرار إلى المدائن وترك المدينة .

وأقبل الليل ، وتسور رجل أسوار المدينة ، ثم هبط فيها ، وراح يجوس خلالها فلم يجد أحداً ، فناداهم :

— والله ما فيها أحد .

فتدافع المسلمون ودخلوا المدينة فإذا هى ساكنة سكون الرموس ، فدخلوا بهرسير ضاحية المدائن فى جوف الليل البهيم ، وشاء سعد أن يعبر النهر إلى المدائن فوراً فأسرع إلى الشاطىء ، ولكنه وجد الأعاجم قد ضموا السفن فيما بين البطائح وتكريت ، فوقف ومن معه على الشاطىء ينظرون ، فلاح لهم إيوان كسرى الأبيض فى الظلام ، فرأوا شيئاً عجباً ، رأوا بنياناً ضخماً ما رأوا مثله ، فتطلعوا إليه مدهوشين ، وعقدت الدهشة ألسنتهم مدة ، ولما وجد ضرار بن الخطاب لسانه هتف :

— الله أكبر ! أبيض كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله .

فكبر المسلمون ، واستمروا فى التكبير ، منشرحى الصدور ، فهاهو أبيض كسرى أمامهم ، وما بينهم وبينه سوى ذلك النهر ، وسيعبرونه ، وسينزلون بإيوان كسرى محققين نبوءة نبيهم العظيم .

الفصل الثالث والعشرون

كتيبة الأهوال

« ذلك تقدير العزيز العليم »
قرآن كريم

بقى سعد فى بهرسير ، وكان كلما تطلع إلى الضفة الثانية ، ورأى إيوان كسرى الأبيض ، ثارت حماسته ، وراح يفكر فى اقتحام النهر ليضع يده على المدائن حاضرة فارس ، ولكن كان يمنعه الإبقاء على المسلمين . وفى يوم أقبل رئيس من رؤساء فارس ، واستأذن فى مقابلة سعد فأذن له ، ولما تقابلا دار الحديث بينهما ؛ فراح الرجل يقول له : « مايقيمك ؟ لايأتى عليك ثالثة حتى يذهب يزدجرد بكل شىء فى المدائن » . وراح يدله على مخاضة فى النهر يسهل اقتحامها ، ولكن سعداً أبى ، فقد خشى أن يكون ذلك مكيدة دبرت للقضاء على المسلمين ، وأقبل الليل ونام الناس ، وهجع سعد ، فرأى فيما يرى النائم أن جيوش المسلمين اقتحمت النهر ، وأن الخيول قد سبحت بمن عليها حتى عبرت إلى الضفة الثانية سالمة ، فهب من نومه منشرح الصدر ، وقد عقد العزم على أن يخوض النهر بجيشه ، وعلى أن ينطلق باسم الله ، وعلى بركة الله .

وتنفس الصبح ، فخرج سعد إلى الناس وجمعهم ، وقام وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

— إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه معه ، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فينا ، وشوكتكم فى سفنهم ، وليس وراءكم شىء

تخافون أن تؤتوا منه ، فقد كفاكموهم أهل الأيام ، وعطلوا ثغورهم ، وأغنوا ذادتهم ، وقد رأيت من الرأى أن تبادروا جهاد العدو بذياتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، إلا أنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعاً :

ـــ عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل .

وأخذ سعد ينتدب الناس إلى العبور فقال :

ـــ من يبدأ ويحمى لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج ؟

فقال عاصم بن عمرو :

ـــ أنا .

وتقدم من سعد وانتدب بعده ستمائة من أهل النجدات ، فاستعمل سعد عليهم عاصما ، وبذلك تكونت كتيبة الأهوال ، وصار عاصم وكتيبته حتى بلغوا شاطىء الدجلة ، وكان النهر قد أرغى وأزبد وفاض ، فنظر عاصم إلى من معه وقال :

ـــ من ينتدب معى لمنع الفراض من عدوكم ، ولنحميكم حتى تعبروا ؟

فتقدم ستون ، فجعلهم نصفين على خيول إناث وذكورة ليكون أسلس لعوم الخيل ، واقتحم عاصم ومن معه النهر ، فلما رأى الأعاجم الذين كانوا على الضفة الثانية ما فعل المسلمون ، أرسلوا خيلهم بالإقاة هؤلاء المردة الذين لم يقف النهر فى وجههم ، ولم يثنهم عن عزمهم ، واقتحمت خيول الفرس النهر ، فلما رأى عاصم ذلك ، صاح فيمن معه :

ـــ الرماح ! الرماح ! أشرعوها وتوخوا العيون .

واندفع عاصم والستون الذين معه صوب خيول الفرس التى نزلت لملاقاتهم ، ولما رأى بقية كتيبة الأهوال ما يصنع إخوانهم ، اقتحموا النهر واندفعوا ليشتركوا جميعاً فى قتال الفرس ! وعامت خيول المسلمين

واقتربت من الضفة الثانية ، وهناك التقى المسلمون بالأعاجم ، ودارت معركة فى البحر أشد هولا مما دارت على الأرض ، وأخذ المسلمون يصوبون الرماح إلى عيون الأعداء وإلى عيون الخيل ، فأخذت الخيل تنفر ، وتزلزلت بهم ، وراحت كتيبة الأهوال تنزل بالأعداء ضربات قاصمات ، فأحس الفرس ألا قبل لهم بهذا فقال بعضهم لبعض :

— ماتقاتلون الإنس ، وما تقاتلون إلا الجن .

وثبت روح الهزيمة فيهم ، فراحوا ينسحبون ، وخرجوا من الماء إلى البر وكتيبة الأهوال فى أثرهم ، لاتترك لهم فرصة للراحة أو التجمع ، فاستمر القتال فى البر إلى أن صاح صائح فى أهل فارس :

— علام تقتلون أنفسكم ، فوالله مافى المدائن أحد .

فزاد ذلك فى وهنهم ، ووقت فى عضدهم ، فانهزموا وتقهقروا صوب المدائن .

أصبحت كتيبة الأهوال على الضفة الثانية ، لا ينازعها منازع ، ورأى سعد أن عاصما قد زحزح الأعداء ، فقال للناس :

— اقتحموا وقولوا ، نستعين بالله ، ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فاقتحم الناس دجلة ، وركبوا اللجة ، واقتربوا وصاروا يتحدثون كما يتحدثون على الأرض ، وراح سلمان الفارسى يساير سعداً فى الماء ، وامتلأ النهر بخيل المسلمين ، حتى لم يعد من اليسير أن يرى الماء من الشاطىء ، والتفت سعد إلى سلمان وقال :

— والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمن الله عدوه إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات .

فقال له سلمان : الإسلام جديد ، ذللت لهم البحور كما ذلل لهم البر ، أما والذى نفس سلمان بيده ، ليخرجن منه أفواجا كما دخلوه أفواجا

واستمر جيش سعد فى العبور ، والناس يتحادثون، وزل رجل عن ظهر فرسه ، فكاد يغرق ؛ ولكن القعقاع لحقه ، فثنى عنان فرسه إليه ، وأخذ بيد الرجل ، وراح يجره والتيار يجرفه ، واستمر القعقاع فى جره حتى بلغ الشاطىء .

فالتفت الرجل إليه وقال :

ـــ عجزت النساء أن يلدن مثلك يا قعقاع .

وخرج المسلمون من النهر أفواجا كما دخلوه أفواجاً ، فراحت الأفراس تنفض أعرافها وارتفع صهالها ، وكبر المسلمون فزلزل المكان زلزالا ، وحمدوا الله على أن أخرجهم جميعاً من الماء سالمين ، والتفت سعد إلى عاصم وأمره أن ينطلق إلى المدائن ، فانطلق وكتيبة الأهوال خلفه إلى قلب الإمبراطورية الفارسية ليطهروه ، فتخر الإمبراطورية كلها تحت أقدامهم .

الفصل الرابع والعشرون

سعد في إيوان كسرى

«كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام
كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين : كذلك أورثناها
قوما آخرين» قرآن كريم

انطلقت كتيبة الأهوال في سكك المدائن ، فلم تعثر على أحد ، ولمح رجل جماعة من الفرس يتلاومون ويقولون : من أى شيء فررنا ، وجعلوا يحمس بعضهم بعضا ، ودبت الحماسة فيهم ، وهاجوا وماجوا ، فمال الرجل عليه وضربه بسيفه ففلق هامته ، فلما رأى القوم ماحل بإمامهم تفاروا عنه : وعاد الرجل يجد في أثر أصحابه ليلحق بهم.

وراحت كتيبة الأهوال تطوى السكك القفار ، حتى بلغت القصر الأبيض ، فوجدت أناساً يدافعون عنه ، فضربت عليه الحصار ، وجاء سعد ومن معه ، فحاصر المسلمون القصر من كل جانب ، وتطايرت السهام ، وتصرم اليوم الأول ، وأقبل اليوم الثاني وسعد في مكانه يدبر أمره ، وفيما هو يفكر ، أشرف رجل من القصر يطلب من يكلمه ، فأرسل سعد سلمان ، فمشى سلمان حتى صار قبالة الرجل الذى سأل عن شروط المسلمين ، فقال سلمان :

ـــ ثلاث تختارون منهن أيتهن شئتم .

ـــ وما هى ؟

ـــ الإسلام ، فإن أسلمتم فلكم مالنا ، وعليكم ماعلينا ، وإن أبيتم

فالجزية ، وإن أبيتم فمناجزتكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم.

ودخل الرجل ليشاور أصحابه ، واستمر الحصار ، وفى اليوم الثالث أيقن من فى القصر ألا قبل لهم على مواجهة هؤلاء المردة الذين قتلوا أبطالهم ، وشتتوا جيوشهم ، وجعلوا ملكهم يحمل ماخف حمله من جواهر ، ويترك عرشه ، وترك فى الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والأدهان ما لاتقدر قيمته ، ويفر إلى حلوان مشرداً طريدا ، لايدرى مآله ، ولا يطمئن إلى غده ، فرأوا من الحكمة مصالحة المسلمين ، فأشرف سفيرهم من القصر ، وتقدم إليه سلمان ليسمع ردهم فقال السفير :

— لاحاجة لنا فى الأولى ولا فى الآخرة ولكن الوسطى .

قبل من فى القصر دفع الجزية للمسلمين ، وفتحت أبوابه فتقدم سعد والناس حوله ، ودخلوا قصر كسرى العظيم ، وجعلوا يدورون بعيونهم فى جنباته ، فامتلئوا دهشة ، رأوا عظمة ماراوا مثلها قط ، رأوا أعمدة ملساء ضخمة قائمة وتماثيل جص دقيقة الصنع ، ونمارق منمقة مزوقة وأبسطة فاخرة ، وترفا يأخذ باللب جعلهم يمشون مأخوذين فاغرى الأفواه دهشة وعجبا ، واستمروا فى طرقات القصر حتى بلغوا إيوان كسرى فزاد عجبهم ، ورأى سعد مايبهر عينه ، وخلب لبه ، فخشع قبله وجعل يقرأ : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك أورثناها قوماً آخرين » .

وآن أوان الصلاة وهم فى إيوان كسرى ، فأمر سعد المؤذن بالأذان ، فارتفع صوت المؤذن لأول مرة مجاجلا فى إيوان الوثنية :

الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر !

فأطرق الجميع وأحسوا طمأنينة تمتزج برهبة ، وكان صوت المؤذن يداعب أوتار قلوبهم ويسيطر على حواسهم ، فيرفعهم إلى عالم سماوى

وجعلهم يحلقون فى أجواء من النشوة الروحية ، حتى ليحسوا أنهم على اتصال وثيق بالله رب العالمين .

وأم سعد القوم ، ووقف خلفه المسلمون الصناديد ، الذين ماهابوا أحدا ولا خشوا موتا ، خاشعين يرتجفون خوفا من خشية الله . وراح سعد يقرأ القرآن فتهتز أفئدتهم فكأنما يسمعونه لأول مرة ، وكانوا فى صلاتهم ملائكة بررة ، كما كانوا فى قتالهم شياطين مردة .

وقضيت الصلاة ، فأمر سعد الناس بجمع ما فى القصر والإيوان والدور ، ووكل بالأقباض عمرو بن عمرو بن مقرن ، وراح الناس يجوسون خلال القصر وبلغ بعضهم قبابا تركية مملوءة سلالا مختمة بالرصاص ، فحسبوها طعاما ، ففتحوا السلال فإذا هى آنية الذهب والفضة، فحملوها إلى عمرو بن مقرن ووجد بعضهم كافورا فحسبوه ملحاً، فراحوا يعجنون به ، ولكنهم وجدوا مرارته فى الخبز ، واستمرت الغنائم ترد على عمرو بن مقرن وهو يحصيها وتتكدس أكواما .

وأمر سعد زهرة أن يجد فى أثر القوم الفارين ، فخرج زهرة ومن معه وانطلقوا كالشهاب حتى وافوا جسر النهروان فوجدوا الفارين عليه فخالطوهم وضاربوهم وزلزلوهم زلزالا شديدا ، وسقط بغل فى النهر فأسرع الأعداء إليه وراحوا جميعاً يحاولون إخراجه ، ورأى زهرة اهتمام القوم بالبغل فاتجه إليهم وراح يضربهم بالسيوف، ولكنهم ظلوا ثابتين لم يفروا وتحملوا الضغط الشديد ، فقال زهرة :

ــ إنى أقسم بالله إن لهذا البغل لشأناً ، ما كلب القوم عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك إلا لشيء بعد ما أرادوا تركه .

وحمل عليهم حملة صادقة، وراح يحصيهم عدداً، ويقتلهم بدداً، فلم يبق منهم أحدا واتجه أصحاب زهرة إلى البغل فأخرجوه ، ثم أمر برده إلى سعد .

ولمح القعقاع رجلا يحاول الفرار ، والناس تحميه ، فانطلق إليه وسيفه فى يده ، فلما اقترب منه ، تبادل الرجلان الضربات وضرب الفارسى القعقاع ضربة شديدة اتقاها بسيفه ، ثم ضربه القعقاع ضربة فحاول الفارسى أن يتلقاها بسيفه ، ولكنها أطاحت بذراعه وما يحمل ، ثم ضربه الثانية فكانت القاضية ، ووجد مع المقتول جنيبة عليها عيبتان ، وغلافان فى أحدهما خمسة أسياف وفى الآخر ستة أسياف ، وإذا فى العيبتين أدراع ، فأخذ الغلافين والعيبتين وعاد إلى سعد .

وقف صاحب الأقباض يستقبل الرجال ويأخذ منهم ما غنموا ، ووقف أناس ينظرون ويظهرون إعجابهم بما يشاهدون ، وأقبلت الدواب فى قطار طويل ، وراح كل يقدم دابته وهو لا يدرى ما تحمل ، وتقدم رجل بالبغل الذى بعث به زهرة ، وترك الرجل البغل وهم بالانصراف ، فالتفت صاحب الأقباض إليه وقال :

— على رسلك حتى ننظر ما معك .

وراح الرجل يحط عن البغل ما يحمل ، فإذا الذى عليه حلية كسرى ؛ ثيابه وخرزاته ووشاحه ، ودرعه التى كان فيها الجوهر ، والتى كان يلبسها ويجلس فيها للمباهاة والتيه ، ففغر الناس أفواههم دهشة ، وأقبل رجل يسوق حمارين ، وحط عنهما حملهما فإذا تاج كسرى يتلألأ لألاء ، فكبر الناس وهللوا ، وبلغ تكبيرهم مسامع سعد فأقبل ليرى ما هناك ، وجاء سعد إلى صاحب الأقباض ، فرأى الناس مجتمعين ينظرون مبهوتين ، فنظر إلى ما ينظرون فرأى عجباً ، رأى تاجاً يشع ضياء يكاد سناؤه يذهب بالأبصار ، ثم أخرجت ثياب كسرى التى كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب ، المنظوم بالجوهر ، وأقبل القعقاع بن عمرو بالعيبتين والغلافين ، وأخرج من العيبتين أدراعا ، فإذا الأدراع درع كسرى ودرع هرقل ودرع النعمان ودروع أخرى لملوك الفرس ، وإذا فى أحد الغلافين

خمسة أسياف وفى الآخر ستة أسياف ، وكان بين الأسياف سيف كسرى وسيف هرمز وسيف هرقل وسيف النعمان ، فالتفت سعد إلى القعقاع وقال له :

ـــ اختر أحد هذه الأسياف .

فاختار سيف هرقل، وأعطاه سعد درعا من الدروع ثم قال :

ـــ احبسوا سيف كسرى وتاجه وثيابه وسيف النعمان فى الأخماس لنبعث بها إلى عمر لتسمع بذلك العرب .

وجاء رجل يقود حمارين ، فتقدم صاحب الأقباض منهما ونظر فيما على أحدهما ، فإذا سفطان ، فى أحدهما فرس من ذهب مسرج بسرج من فضة على ثغره الياقوت ، والزمرد منظوم على الفضة ، وعليه فارس من فضة مكلل بالجواهر ، وإذا فى الآخر ناقة من فضة عليها سليل من ذهب وبطان من ذهب ، ولها زمام من ذهب، وكل ذلك منظوم بالياقوت، وإذا عليها رجل من ذهب مكلل بالجوهر ، وأقبل رجل يحق معه ، فدفعه إلى صاحب الأقباض ففتحه ، فرأى شيئاً يأخذ بالباب ، لم ير مثله قط ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض وقالوا :

ـــ ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه .

والتفت صاحب الأقباض إلى الرجل وقال :

ـــ هل أخذت منه شيئاً .

فقال الرجل فى هدوء :

ـــ أما والله لو لا الله ما أعلمكم به .

ـــ من أنت ؟

ـــ لا والله ، لا أخبركم لتحمدونى ، ولا غيركم ليقرظونى ، ولكنى أحمد الله ، وأرضى بثوابه .

وانصرف الرجل وقد اشرأبت إليه الأعناق ، وراح سعد يجيل

عينيه فى الغنائم المكدسة التى جاء الناس بها وقال :

— والله إن الجيش لذوى أمانة ، ولو لا ما سبق لأهل بدر لقلت وأيم الله على فضل أهل بدر ، لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنات فيما أحرزوا ، ما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم .

ثم جمع الغنائم ، فراح سعد يقسم الفىء ، فاحتجز الخمس ، ثم قسم الباقى على الناس ، فكان نصيب الفارس اثنى عشر ألفاً ، وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل ، وقسم الدور وأنزل العيالات ، وجىء بالقطف وهو بساط واحد ، وهم بتقسيمه ، ولكنه رأى أنه إذا قسم فقد رونقه وقلت قيمته ، ورأى أن لو أرسل به إلى عمر لرأى الناس شيئاً عجباً ، فالتفت إلى من عنده وقال :

— هل لكم فى أن تطيب أنفسنا عن أربعة أخماسه ، فنبعث به إلى عمر ، فيضعه حيث يرى ، فإنا لا نراه يتفق قسمته ، وهو بيننا قليل ، وهو يقع من أهل المدينة موقعاً .

فقالوا جميعاً :

— نعم .

وجىء بالخمس وفيه ثياب كسرى وحليه وتاجه وسيفه وسيف النعمان والقطف العظيم ، وحملت هذه الأشياء جميعاً على الرواحل ، وانطلقت القافلة إلى المدينة تحمل أعجب ما ورد إليها ، وأنفس ما شاهده العرب .

الفصل الخامس والعشرون

نفائس كسرى فى المدينة

« إن قوماً أدوا هذا لأمناء »
عمر بن الخطاب

انطلقت القافلة التى كانت تحمل نفائس الفرس تخب فى السير قاصدة المدينة ، وبينما كانت القافلة فى طريقها كان حليس الأسدى على ظهر فرسه ينطلق كالصاعقة داخلا المدينة ، ميمما صوب المسجد قاصداً أمير المومنين ليبشره بفتح المدائن ، وما حدث فى فتحها من أعاجيب .

وبلغ حليس المسجد فترجل عن فرسه ، ودخل فألفى عمر وعنده جمع من أصحابه ، فسلم عليه وراح يقص عليه كيف ركبوا اللجة عند عبور النهر ، وكيف اقتتل المسلمون والفرس فى الماء ، وكيف فر الفرس مذعورين مدحورين ، وكيف دخلوا قصر كسرى الأبيض ، وما وجدوا فيه من تحف رائعات ، وزينات تخطف الأبصار وتأخذ بالألباب ، واستمر حليس يصف ما وقع وما حدث فى بيان رائع وحماسة أخاذة ، فراحوا جميعاً ينظرون إليه مأخوذين ، واستمر يصف لهم ما وجد المسلمون فى إيوان كسرى ، فقصر خيالهم عن أن يتتبع مايصف أو يتصور مايقول ، وكيف يتصورون مالم يروا ، ومالم يخطر لهم على قلب ، وذكر حليس لعمر عن سعد الشىء الكثير ، وكيف أنه نبطىّ فى جبايته ، يقسم بالسوية ، ويعدل ، وينقل إليهم حقهم نقل الذرة ، فأثلج صدر عمر .

مرت أيام ووفدت القافلة بنفائسها على المدينة ، فسرى نبأ وفودها

بين الناس ، فخرجوا إلى المسجد ليروا عجائب كسرى التى طالما سمعوا عنها ، والتى طالما حدثهم المحدثون بعظمتها وندرتها ، وها هى عندهم ، وعما قليل تصير ملك يمينهم ، فالحمد لله الذى نقلهم هذا .

ووضعت القافلة أحمالها النفيسة ، وراح عمر يفحص الغنائم ، وعلى الرغم مما سمع بعظمتها ، فإنه وجدها أعظم مما قدر وتصور ، وبان على وجوه الناس الدهشة والعجب ، ونشر القطف العظيم ، فإذا هو بساط واحد ، ستون ذراعاً فى ستين ذراع ، فيه طـرق كالصور ، وفصوص كالأنهار ، وفى حافاته كالأرض المزروعة ، والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب ، ونواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك ، وكانوا يعدونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين ، فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه فكأنهم فى رياض ، وما أن وقعت أعين الناس على البساط حتى انبعثت منهم أصوات دهشة وعجب ، فالتفت عمر إلى من حوله وقال :

— إن قوماً أدوا هذا لأمناء !

فقال على بن أبى طالب :

— إنك عففت فعفت رعيتك ، ولو رتعت لرتعت .

وأخذ عمر يفحص ثياب كسرى وتاجه وسيفه ودرعه ، ثم قال :

— على بمحلم .

فتقدم رجل ضخم ، وكان أجسم عربى يومئذ بأرض المدينة ، فألبس تاج كسرى على عمودين من خشب ، وصب عليه أوشحته وقلائده وثيابه وأجلس للناس ، فنظروا إليه فرأوا أمراً عظيما من أمر الدنيا وفتنتها ، وتطلع عمر إلى الرجل طويلا ثم رد الطرف وهو يقول :

— أحق بإمرىء من المسلمين غرته الدنيا ، هل يبلغن مغرور منها دون هذا أو مثله .

واستبشر الناس فى فرحهم ولكن عمر أطرق ، وأحس رهبة وخشية من الله ، فرفع رأسه إلى السماء وقال :

ـــ اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك ، وكان أحب إليك منى وأكرم عليك منى ، ومنعته أبا بكر ، وكان أحب إليك منى ، وأكرم عليك منى ، وأعطيتنيه ، فأعوذ أن تكون أعطيتنيه لتمكر بى ! .

ولم يستطع عمر أن يكبت خشيته ، فانخرط فى البكاء ، فالتفت إليه عبد الرحمن بن عوف وقال :

ـــ يرحمك الله يا أمير المؤمنين .

فقال له عمر .

ـــ أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تمسى .

وقام عمر وانصرف ، وراح عبد الرحمن يبيع نفائس كسرى .

قسم عمر الفئ بين الناس ، وبقى البساط العظيم لا يدرى ما يفعل به ، أيقسمه بين الناس ، أم يبقيه درة من الدرر ؟ وإذا أبقاه ففى حوذة من يبقى ؟ ! إن بيعه أمر عسير ، على الناس غير يسير ، فلا يقوى على شرائه أحد . وأخيرا عزم على استشارة الناس ، فقام وحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـــ أشيروا على فى هذا القطف .

فأشار بعضهم بقبضه ، وأشار بعضهم بتفويض الأمر له فقالوا :

ـــ قد جعلنا ذلك لك فى رأيك .

ولكن على بن أبى طالب تقدم وقال :

ـــ لم تجعل علمك جهلا ، ويقينك شكا ، إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت ، أو لبست فأبليت ، أو أكلت فأفنيت . إنك إن تقبله على هذا اليوم ، لم تعدم فى غد من يستحق به ما ليس له .

فقال له عمر : صدقتنى ونصحتنى .

وأمر عمر بتقسيم القطف فقسم ، وأخذ على نصيبه وباعه بعشرين ألفا .

الفصل السادس والعشرون

جلولاء الوقيعة

استقر سعد فى إيوان كسرى ، وبعث العيون خلف الفرس المنهزمين ، وتصرمت الأيام ، واستجمت الجيوش ، وفى يوم عاد عين من العيون ودخل على سعد فى الإيوان ، وراح يقص عليه ما رأى من أهل فارس فقال له :

ـــ انتهى الأعاجم بعد الهرب من المدائن إلى جلولاء ، وتفرقت الطرق بهم ، وهم كل فريق منهم بالتوغل فى طريق ، فتذامروا وقالوا : « إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً ، وهذا مكان يفرق بيننا ، فهلموا فلنجتمع للعرب به ، ولنقاتلهم ، فإن كانت لنا فهو الذى نريد ، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذى علينا ، وأبلينا عذراً » ، واجتمعت كلمتهم على النزول بجلولاء ، وأقسموا لمهران ألا يفروا ، وأن يثبتوا لنا حتى الموت ، وأمرهم مهران أن يحفروا خندقا ، فأتموا حفره ، وأحاطوا به الحسك من الخشب ليكون حائلا بيننا وبين اقتحام الخندق عليهم ، وقد نزل يزد جرد بحلوان ، وراح يمدهم بالمال والرجال .

فأطرق سعد برهة ، واستأذن الرجل وخرج ، واستمر سعد فى تفكيره ، وجاء عين آخر وأخبره أن أهل الموصل قد عسكروا بتكريت فرأى سعد أن يكتب بذلك لعمر ، فكتب له ، وانتظر رده وهو على حذر ، يعد على الأعداء حركاتهم وسكناتهم ، وجاء كتاب عمر يأمره فيه بأن يسرح هاشم بن عتبة إلى جلولاء فى إثنى عشر ألفاً ، فاستدعى

سعد هاشما وأمره أن يتأهب للخروج لقتال الفرس، وجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو .

ثم استعداد جيش المسلمين ، فخرج من المدائن فى عدة عظيمة ، على رأسه هاشم، وفيه وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب، وانطلق إلى جلولاء ، فلما رأى هاشم تحصن الأعاجم فى الخندق أحاط بهم وحاصرهم وشن عليهم هجوماً شديداً ، ولكن لم ينل منهم شيئاً، فإنهم قد تحصنوا بالخندق ، ورموا حول الخندق بحسك الخشب ، فما استطاعت الخيل أن تتقدم ، واستمر الأعاجم فى خندقهم يرمون المسلمين بالنبل ، ومرت الأيام ووصل لأهل فارس مدد فى حلوان ، فخرجوا يزاحفون المسلمين فى زهاء وأهاويل ، واقتتل الجيشان قتالا رهيباً ، وساعد الخندق أهل فارس على أن يقاتلوا ثم يرتدوا إلى خندقهم المنيع ، وقام هاشم فى الناس وقال :

ـــ إن هذا المنزل منزل له مابعده .

واستمر القتال دائراً بلا هوادة أولين ، وأمد سعد هاشما بالفرسان ، ورأى الأعاجم أن حسك الخشب يعوقهم فى حركتهم ، فجعلوا فرضاً مما يليهم تصعد منه خيلهم ، فأفسدوا حصنهم .

خرج أهل فارس من الخندق لمناجزة المسلمين ، فقام هاشم فى الناس وقال :

ـــ أبلوا الله بلاء حسناً يتم لكم عليه الأجر والمغنم .

ثم صاح فى أصحابه :

ـــ شدوا .

فانطلق فرسان المسلمين إلى فرسان الأعاجم ، واختلط الجميع ، وارتفع صليل السيوف ، وتبودل الضرب والطعن ، وأخذ القعقاع يفتك بالأعداء فتكا ذريعاً ، ومدت السماء يدها لمعاونة المسلمين فهبت

ريح شديدة فلم يستطع الأعاجم إلا المحاجزة ، فتهافت فرسانهم فى الخندق ، وانقض المسلمون عليهم ، ولكنهم راحوا يرمون حول الخندق بحسك الحديد ، فعاق ذلك تقدم خيل المسلمين

راح من فى الخندق يسوون صفوفهم لاستئناف القتال ، فلما تم لهم ماأرادوا خرجوا ثانية فى جموع هائلة وقد عزموا على أن يثبتوا للمسلمين ، فقد انقضى ثمانون يوماً وهم فى خندقهم محاصرون فما هزموا المسلمين ، وماهزمهم المسلمون ، فليكن هذا اليوم يوم الفصل . خرجوا ليقاتلوا أعداءهم الذين هزموهم فى ديارهم وشتتوا شملهم ، وسبوا نساءهم ، وقد وطنوا عزمهم على الاستماتة فى قتالهم عسى أن يزيحوهم عنهم ، وأن يردوهم على أعقابهم .

وداوت رحى معركة رهيبة شديدة بين الطرفين ، معركة سالت الدماء فيها أنهاراً ، وقاتل أهل فارس قتالا ماقاتلوا مثله من قبل ، ونفد النبل ، ونفد النشاب ، وقصفت الرماح ، فاستل الناس أسيافهم ، وسقطت أشعة الشمس على الأسياف فكانت تعكس ضياء يخطف الأبصار ، وصال الفرسان وجالوا ، واستمر المنون حاضنا ميدان المعركة . ولما استوت الشمس فى كبد السماء وحضرت الصلاة ، صلى المسلمون إيماء حتى إذا كان بين الصلاتين خفست كتيبة وجاءت أخرى فوقفت مكانها .

نظر القعقاع إلى المسلمين فرأى الإعياء قد بدا عليهم ، فخشى مغبة ذلك فالتفت إليهم وقال :

— أهالنكم هذه ؟

— نعم . نحن مكلون ، وهم مريحون ، والسكال يخاف العجز إلى أن يعقب .

— إنا حاملون عليهم ومجادوهم ، وغير كافين ولا مقلعين حتى يحكم

الله بيننا ، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ، ولا يكذبن أحد منكم .

وانطلق القعقاع إلى الأعداء ، فانطلق الناس خلفه ، واستؤنفت المعركة فكانت أشد وأمر ، وأخذ النهار فى التصرم ، فتصرمت معه أرواح خلق كثيرين . وأقبل الليل وألبسهم رواقه فأخذ الأعداء يمنة ويسرة ، ورأى القعقاع أن المسلمين قد تحاجزوا مع الليل ، ولكنه رأى بثاقب نظره أن لو صبر المسلمون قليلا لانتصروا على الأعداء نصراً مؤزرا ، فأوعز إلى أحد أصحابه أن يصيح :

أين تحاجزون وأميركم فى الخندق ؟ !

صاح الرجل ، وما صك صوته آذان القوم ، حتى ثارت الحماسة فيهم ، فكيف يتحاجزون وأميرهم بين الأعداء ، فاستأنفوا القتال ليبلغوا أميرهم ، وراح القعقاع يشق طريقه عند مدخل الخندق ، وبينما القتال الرهيب يدور ، إذ جلجت أصوات فى الفضاء :

— الله أكبر ! الله أكبر !

فشد ذلك من أزر المسلمين ، إنه مدد قد جاء ، وزلزل الأعداء زلزالا شديداً ، وتقدم المدد وعلى رأسه عمرو بن معد يكرب ، وراح الناس يشقون طريقهم صوب الخندق حتى بلغوه ، فألقوا القعقاع يقاتل فيه ، فانضموا إليه ، ودار القتال داخل الخندق ، ففر مهران والفيرزان ، وسقط الأعاجم مجدلين تحت ضربات السيوف ، وعقرت دوابهم ، فجللت القتلى المجال ، وانهزم أهل فارس هزيمة نكراء .

أخذ المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب ، فإذا هى عظيمة لا تقدر ، كثيرة فوق ما كانوا يتصورون ، وعاد الناس بالغنائم إلى هاشم فجمعها وقسمها ، فحجز الخمس لسعد ، وقسم الباقى بين الناس ، فكان نصيب الفارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب ؛ ورجع هاشم بالأخماس إلى سعد

أرسل سعد إلى المدينة خمس الفيء والسبايا فى قافلة طويلة ، وكان فى القافلة زياد بن أبى سفيان .

فلما بلغت القافلة يثرب ، ورأى عمر جسامة الخمس بان الرضا فى وجهه ، وفكر أين يضعه حتى يقسمه ، فالتفت إليه عبدالله بن الأرقم وقال :

ـــ اجعلها فى بيت المال حتى نقسمها .

فقال عمر :

ـــ والله لا يظلها سيف بيت دون السماء .

فطرحت بين صفتى المسجد صفة النساء وصفة الرجال ، وطرحت عليها الأنطاع ، وبات عبد الله بن الأرقم وعبدالرحمن بن عوف يحرسان ما أرسله سعد .

وقابل زياد بن أبى سفيان عمر ، وراح يقص عليه ما فعل المسلمون من أعاجيب فى قتال الفرس حتى هزموهم فى جلولاء ، واستمر يصف له ما حدث بأسلوب أخاذ وحماسة غالبة ، حتى أسر عمر ، فالتفت إليه عمر وقال :

ـــ هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به ؟

فقال زياد :

ـــ والله ما على الأرض شخص أهيب فى صدرى منك ، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك ؟ !

وأصبح الصباح ، وخرج عمر إلى المسجد ، واجتمع الناس وكشف عمر عن نفائس أهل فارس ، فرأى الذهب والفضة ، فظهر عليه التأثر ثم غامت عيناه بالدمع ، ثم انهمر الدمع حتى بل لحيته ، فالتفت إليه عبد الرحمن بن عوف وقال :

ـــ ما يبكيك يا أمير المؤمنين ، فوالله إن هذا اليوم ليوم شكر ، ويوم فرح وسرور .

فقال عمر :

ـــ لا والله ، ما فتح الله على قوم هذا قط إلا جعل بأسهم بينهم ، وألقيت بينهم العداوة والبغضاء .

وقام زياد فى الناس ، وراح يصف لهم مافعل إخوانهم من ضروب البطولة والإقدام . وهدأ المكان وسكن الجميع كأن على رءوسهم الطير ، وتدفق زياد ، فالتفت إليه عمر وقال :

ـــ هذا الخطيب المصقع .

فقال زياد .

ـــ إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا .

* * *

أرسل سعد إلى هاشم أن يبقى بجلولاء ، وأن يسرح القعقاع فى آثار القوم حتى ينزل بحلوان، فخرج القعقاع يجد فى أثر مهران والفيرزان، وأدرك جيش المسلمين مؤخرة جيش الأعداء ، فدارت معركة بينهم وأخذ مهران يحض الأعاجم على الاستماتة فى القتال، ولمحه القعقاع فاتجه إليه ، وأخذ الخصمان العنيدان يتبادلان الضربات ، فكانا كظبيين فى خفتهما ، وكأسدين فى بأسهما ، وأخذ كل منهما يتلقى ضربات غريمه ، ودارا حول نفسيهما ، وشد القعقاع على خصمه وضربه ضربة هائلة فتلقاها ، ولكن القعقاع عاجله بضربة ثانية ، فخر مهران مجدلا .

ورأى الفيرزان ما حل بمهران فولى الأدبار ، وانطلق إلى حلوان حتى دخل على يزدجرد ، فراح يقص عليه مافعل المسلمون بهم، والوجل يتملكه ، واليأس مستول عليه ، فانتقل الذعر منه إلى يزدجرد ، فجمع مايستطيع جمعه ، وخرج من حلوان فاراً نحو الرى، قبل أن يكون مآل مهران مآله ، وترك بها خيلا عليها خسرو ، ولو أنصف لما ترك بها أحداً فلن يعترض سيل المسلمين شيء ، ولن يقف فى سبيله أحد .

سار القعقاع بعد مقتل مهران قاصداً حلوان ، فلما أصبح على بعد فرسخ منها ، خرج له خسرو ، ودارت معركة بين الجيشين ، وكانت الدائرة على الفرس فدخل القعقاع وجيشه حلوان وغنموا شيئاً كثيراً .

كتب سعد إلى عمر بنزول القعقاع بحلوان ، وطلب منه الإذن فى اتباعهم ، ولكن عمر أبى وأرسل إليه :

— لوددت أن بين السواد وبين الجبل سد ، لا يخلصون إلينا ، ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد ، إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال .

الفصل السابع والعشرون

إلى الكوفة

« إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان » .
عمر بن الخطاب

نزل الناس بالمدائن ، وكان بها ذباب كثير ، وغبار يثور ، فتغير لون الناس ، ونظر حذيفة إلى إخوانه فرأى أجسامهم التي كانت كالرماح المشرعات قد ترهلت ، وعوامل الاعتلال قد بانت عليهم ، فألفى من الخير أن يكتب إلى عمر ، لعل عمر بما عرف عنه من الاهتمام بأمر الناس يجد لذلك الاعتلال علاجاً ، فكتب إليه : « إن العرب قد أترفت بطونها ، وخفت أعضادها ، وتغيرت ألوانها » وبلغت رسالة حذيفة عمر ، وحدث أن جاءت وفود العرب إلى المدينة تحمل أنباء نزول القعقاع حلوان وفتح تكريت والموصل ، فأخذ عمر يتفرس في هؤلاء الذين جاءوا من المدائن ، وقال :

— والله ماهيئتكم بالهيئة التي بدأتم بها ، ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن ، وإنهم لكما بدأوا ، وقد انتكيتم ، فما غيركم ؟

— وخومة البلاد .

أقلقت هذه الحالة عمر ، فأرسل إلى سعد يسأله : « أنبئني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم ؟ » فكان جواب سعد : وخومة البلاد ، إذن لابد من ترك المدائن والبحث عن مكان آخر يصلح لسكنى هؤلاء الذين اعتادوا جفاف الصحارى ، فكتب إلى سعد : « إن العرب لا يوافقها

إلا ما وافق إبلها من البلدان، فابعث سلمان رائدا وحذيفة ، فليرتادا منزلا بريا بحريا ، ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر » .

بعث سعد سلمان وحذيفة يرتادان البلدان ، ويبحثان عن مكان يوافق الناس، فخرج سلمان وسار في غرب الفرات ، وانطلق حذيفة في شرق الفرات ، وأخذا يفحصان وينقبان ويستقصيان ، وبلغ سلمان مكان الكوفة ، فأعجبه مناخه ، والتقى الرائدان ، واتفقا على أن هذا المكان هو أصلح مكان في البلدان يوافق العرب ، فصليا به ، ولما انتهيا من صلاتهما رفعا أيديهما إلى السماء ، وراحا يدعوان :

— اللهم رب السماء وما أظلت ، ورب الأرض وما أقلت ، والريح وما ذرت ، والنجوم وما هوت ، والبحار وما جرت ، والشياطين وما أضلت ، والخصاص وما أجنت ، بارك لنا في هذه الكوفة ، واجعله منزل ثبات .

قدم سلمان وحذيفة على سعد ، وأخبراه عن الكوفة ، فكتب سعد إلى القعقاع أن يوافيه ومن معه في المدائن بعد أن يخلف على حلوان أحداً ؛ فلما توافى الجند بالمدائن ، ارتحل سعد بالناس وانطلقوا حتى وافوا الكوفة ، فعسكر بها .

نزل الناس بالكوفة فاستردوا هيئتهم ، وثاب إليهم ما كانوا فقدوا ؛ ورأوا من الخير لهم أن يشيدوا بيوتاً من القصب ينزلونها بدل الخيام ، فاستشاروا سعداً ، ولكن سعداً ما كان ليقطع بأمر دون أن يرجع إلى أمير المؤمنين ، فأرسل إليه يستأذنه . فأرسل إليه عمر : « العسكر أجد لحربكم ، وأذكى لكم ، وما أحب أن أخالفكم ؛ وما القصب ؟» فأرسل سعد إليه : « العكرش إذا روى قصب فصار قصباً » فأذن لهم سعد ، فابتنوا لهم من القصب بيوتاً ، وشبت حريق فالتهمت البيوت ، فعادوا إلى خيامهم ، ولكنهم وجدوا من العسير عليهم أن يستبدلوا البيوت

التى ألفوا الراحة فيها بالخيام ، فاستأذنوا سعداً فى أن يبنوا بيوتاً من اللبن ، فأرسل إلى عمر وفداً يسألونه أن يأذن لهم ، فقص الوفد عليه ما فعل الحريق ببيوتهم . وأخذوا يحدثونه عن منازل اللبن فقال لهم :

— افعلوا ، ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا فى البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة .

ثم عهد عمر إليهم ألا يرفعوا بنياناً فوق القدر ، فسألوه :

— وما القدر ؟

— ما لا يقربكم من السرف ، ولا يخرجكم من القدر .

وأخذ عمر يذكر لهم ما يتبعونه فى تخطيط الطرق والأزقة ، وعاد الوفد إلى سعد ، وأخبروه خبرهم ، فاستدعى سعد رجاله ، وابتدأ تخطيط الكوفة فبنى أول ما بنى المسجد ، ولما تم المسجد ، وقف رجل شديد النزع فى وسطه ، فرمى عن يمينه ، ومن بين يديه ومن خلفه ، وقال سعد:

— من شاء أن يبنى فليبن وراء هذه السهام .

وخططت الطرق ، فكانت المناهج أربعين ذراعاً ، وما يليها ثلاثين ذراعاً ، وما بين ذلك عشرين ، وبالأزقة سبع أذرع ليس دون ذلك شىء .

وبنيت السوق وبنيت دار لسعد عرفت بالقصر ، وجعل فيها بيت المال ، وأنشىء من نقض آخر قصر كان للأكاسرة فى ضواحى الحيرة ، وبنيت المنازل ، وديت فى الكوفة الحياة ، وكان قصر سعد بلا باب ، وكان بجوار الأسواق ، فكانت غوغاء الناس تمنع سعداً الحديث ، فابتنى للقصر باباً ، ونفس بعضهم على سعد ، فانطلقوا إلى المدينة حتى جاءوا عمر وقالوا له :

— ابتنى سعد داراً يقال لها القصر ، واحتجب فيها ، ولم يكتف بذلك بل جعل لها باباً وقال : « سكن عنى الصويت » وراحوا يوغرون صدر عمر عليه ، فأرسل عمر إلى محمد بن مسلمة ، وأمره أن

ينطلق إلى الكوفة وقال له :

— اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه ، ثم ارجع عودك على بدئك .

انطلق محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأخذ فى السير حتى بلغها ، فاتجه إلى السوق ، ورأى قصر سعد ، فاشترى حطباً ، ثم أتى به القصر ، فأحرق الباب .

علم سعد أن باب قصره قد أحرق ، فقال :

— هذا رسول أرسل لهذا من الشأن .

أيقن سعد أن من حرق بابه رسول عمر ، فراح يبحث عنه فى الكوفة ويستقصى أخباره ، وبعث أصحابه ليعرف من هو ، وعاد أحد رسله إليه وقال :

— إنه محمد بن مسلمة وهو فى الخارج .

— قل له أن يدخل .

وغاب الرسول مدة ثم عاد إلى سعد وقال :

— إنه يأبى .

فنهض سعد وانطلق حتى أتى محمداً عند الباب ، فأراده أن يدخل وينزل عنده فأمعن فى الرفض ، ثم مد يده بكتاب عمر ، ففضه سعد وأخذ يقرأ :

« بلغنى أنك بنيت قصراً ، اتخذته حصناً ، ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً ، فليس بقصرك ، ولكنه قصر الخبال ، انزل منه منزلا مما يلى بيوت الأموال وأغلقه ، ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله ، وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت » .

فسكت سعد برهة ثم أخذ يحلف أنه ماقال الذى قالوا ، وهم محمد ابن مسلمة بالرجوع ، فعرض عليه سعد أن يتزود ولكنه أبى ، وقفل

عائداً ، وقبل أن يبلغ المدينة ، نفد زاده ، فبلغ بالحاء من لحاء الشجر ، وبلغ عمر وقد بان عليه الجهد من الجوع ، فسأله عمر عما به ، فقص عليه قصته ، فقال عمر :

— فهلا قبلت من سعد ؟ !

— لو أردت ذلك كتبت لى به ، أو أذنت لى فيه .

لم يشأ محمد أن يأخذ من سعد ما يتزود به ، لأن أمير المؤمنين لم يكتب له بالزاد ، فقال له عمر :

— إن أكمل الرجال رأياً من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل . وما قال سعد ؟

— أقسم أنه لم يقل ما بلغ أمير المؤمنين .

فبان فى وجه عمر التصديق وقال :

— هو أصدق مما روى عليه وأبلغنى .

الفصل الثامن والعشرون

الهرمزان

«الحمد لله الذى أذل بالاسلام هذا وأشباهه»
عمر بن الخطاب

ضاق صدر يزدجرد بالهزيمة وشاء أن يطلق آخر سهم فى جعبته، فكتب إلى أهل فارس، يذكرهم الأحقاد، ويحرك هممهم، ويقول لهم مؤنباً أن قد رضيتم أن قد غلبتكم العرب على السواد وما والاه والأهواز، ثم لم يرضوا بذلك حتى يوردوكم فى بلادكم وعقر داركم.

فراح أهل فارس وأهل الأهواز يتعاقدون ويتواثقون على النصرة، فتجمعوا، وبلغ عمر خبر تجمعهم، فأرسل إلى سعد أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كثيفاً مع النعمان بن مقرن معه سويد بن مقرن وجرير بن عبدالله البجلى.

خرج النعمان فى أهل الكوفة، فأخذ وسط السواد، حتى قطع دجلة، ثم أخذ البر على البغال إلى الأهواز، ولما جاء سوق الأهواز، انطلق لملاقاة الهرمزان، وشاء الهرمزان أن يعاجل المسلمين لعله ينتصر عليهم، فيرد إلى فارس اعتبارها، فبادر النعمان الشدة، واقتتل الجيشان قتالاً شديداً ودارت الدائرة على الهرمزان، فلحق بتستر، وانطلق النعمان فى أثره.

بلغ النعمان تستر، وحاصرها ودار بين رجال الهرمزان ورجال النعمان قتال رهيب، وأخيراً سقطت المدينة، واعتصم الهرمزان بقلعة من القلاع، وشاهده بعض رجال المسلمين فأسرعوا إليه، حتى بلغوا

مكاناً ضيقاً من القلعة وأصبحوا أمام الهرمزان وجهاً لوجه فصاح فيهم :

— ماشئتم؛ قد ترون ضيق ما أنا فيه وأنتم ، ومعى فى جعبتى مائة نشابة ، ووالله ما تصلون إلى مادام معى منها نشابة ، وما يقع لى سهم ، وما خير إسارى اذا أصبت منكم مائة بين قتيل وجريح ؟

— فتريد ماذا ؟

— أن أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر ، يصنع بى ماشاء .

— فلك ذلك .

فرمى الهرمزان قوسه ، ووقف منتصبا لايقاوم ، فتقدموا منه وشدوه وثاقا .

أرسل الهرمزان إلى المدينة ، وانطلق الوفد به فلما بانت لهم أرباض يثرب ، أغذوا فى السير ، ولما دخلوها هيئوا الهرمزان فى هيئته ، فألبسوه كسوة من الديباج الذى فيه الذهب ، ووضعوا على رأسه تاجا مكللا بالياقوت وعليه حليته كيما يراه عمر والمسلمون. وانطلق الوفد إلى بيت عمر فقيل لهم إنه خرج ، فساروا فى طرقات المدينة والناس حولهم ، ومروا بغلمان يلعبون ، فسألهم الغلمان ، من تريدون ؟ أمير المؤمنين ؟ ،

— أجل .

— إنه نائم فى ميمنة المسجد .

فانطلق الناس إلى المسجد ، فألفوا رجلا نائماً متوسداً برنسه ، ولا أحد فى المسجد غيره ، فانطلقوا وجلسوا دونه ، فراح الهرمزان يدير عينيه فى المسجد ، فلا يجد إلا رجلا نائماً وفى يده درة معلقة ، فسأل الوفد :

— أين عمر ؟

— هو ذا .

وأشاروا إلى الرجل النائم ، فظهر العجب على وجه الهرمزان ،

وارتفعت أصوات الناس، ولكن الوفد أشاروا إلى الناس أن اسكتوا.

وقال الهرمزان :

ـــ أين حرسه وحجابه ؟

ـــ ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ، ولا ديوان .

ـــ فينبغى أن يكون نبيا .

ـــ بل يعمل عمل الأنبياء .

وحدثت جلبة ، وأخذ الناس يموجون بعضهم فى بعض ، فاستيقظ عمر وفتح عينيه ، فوقع بصره على رجل أعجم فى ملابس فاخرة ، وعلى رأسه تاج يتلألأ ، فاستوى جالساً ، وسأل من حوله :

ـــ الهرمزان ؟

ـــ نعم.

فأخذ عمر يتأمله ويتأمل ماعليه ثم قال :

ـــ أعوذ بالله من النار ، وأستعين الله ، الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشياعه .

ثم التفت إلى الناس وقال :

ـــ يامعشر المسلمين ، تمسكوا بهذا الدين ، واهتدوا بهدى نبيكم ، ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة .

فقال له الوفد :

ـــ هذا ملك الأهواز فكلمه.

ـــ لا . حتى لايبقى عليه من حليته شيء .

فجردوه من ثيابه إلا مايستره ، ثم ألبسوه ثوباً صفيقا ، وقال له عمر :

ـــ هيه ياهرمزان ، كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟

ـ ياعمر إنا وإياكم فى الجاهلية ، كان الله قد خلى بيننا وبينكم ، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا .

ـ إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا . . . . ما عذرك وما حجتك فى انتقاضك مرة بعد مرة ؟

ـ أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك .

ـ لاتخف ذلك .

ـ أريد أن أشرب .

فأتى بماء فى قدح غليظ ، فقال الهرمزان :

ـ لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا .

فأتى بماء فى إناء يرضاه ، فتناوله وجعلت يده ترتجف ، ثم التفت إلى عمر وقال :

ـ أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء .

فقال عمر :

ـ لا بأس عليك حتى تشربه .

فألقى الهرمزان بالماء ولم يشربه ، فقال عمر :

ـ أعيدوا عليه ، ولا تجمعوا عليه القتل والعطش .

ـ لاحاجة لى فى الماء ، إنما أردت أن أستأمن به .

ـ إنى قاتلك .

ـ قد أمنتنى .

ـ كذبت .

فقال أنس وكان واقفاً مع الناس يسمع :

ـ صدق يا أمير المؤمنين قد أمنته .

ـ ويك يا أنس .

— قلت له لا بأس عليك حتى تخبرنى، وقلت لا بأس عليك حتى تشربه.

وشهد الناس بمثل ذلك، فأطرق عمر قليلا ثم رفع رأسه والتفت إلى الهرمزان وقال:

— خدعتنى. والله لا أنخدع إلا لمسلم.

فأسلم الهرمزان، وفرض له عمر ألفين، وأنزله المدينة.

الفصل التاسع والعشرون

فتح الفتـــــوح

« قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن
نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو
بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون »

قرآن كريم

شتت سعد الأعاجم ، واستقر فى الكوفة ، وعلا شأنه ، وأرسل العيون وراء القوم الفارين خشية أن يتجمعوا ويفجأوه ؛ فأكلت الغيرة بعض القلوب ، فراح الجراح بن سنان الأسدى يجمع بعض نفر من بنى أسد لينطلقوا إلى عمر فى المدينة ، وليألبوه على سعد ، وتمكن الجراح من جمع بعض نفر ، وراحوا يتحينون الفرصة للخروج من الكوفة إلى المدينة لإنفاذ ما بيتوه بليل .

وعلم سعد أن يزدجرد كاتب أهل الجبال من بين الباب والسند وخرسان وحلوان ، فتحركوا وتكاتبوا ، وركب بعضهم إلى بعض ، فأجمعوا أن يوافوا إلى نهاوند ، ويبرموا فيها أمورهم ؛ وبلغه أنهم قالوا : إن محمداً الذى جاء العرب بالدين لم يغرض غرضنا ، ثم ملكهم أبو بكر من بعده ؛ فلم يغرض غرض فارس إلا فى غارة تعرض لهم فيها ، وإلا فيما يلى بلادهم من السواد ، ثم ملك عمر من بعده ؛ فطال ملكه وعرض حتى تناولكم وانتقصكم السواد والأهواز وأوطأها. ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة فى عقر دارهم ، وهو آتيكم إن لم تأتوه ، فقد

أخرب بيت ملككم ، وليس بمنته حتى تخرجوا من فى بلادكم من جنوده ، ثم تشغلوه فى بلاده . فأرسل سعد إلى أمير المؤمنين رسولا بالخبر ، وكتب له : « إن أهل الكوفة يستأذنونك فى الانسياح إلى أن يبادروهم الشدة » .

خرج رسول سعد ، وخرج أولئك النفر الذين اتفقوا على الشخوص إلى أمير المؤمنين للإيقاع بينه وبين سعد ، وأخذ سعد يستعد لاستئناف قتال أهل فارس فى عقر دارهم ، إنه يعلم أنهم إن جاءوهم قبل أن يبادروهم الشدة ، ازدادوا جرأة على المسلمين وقوة .

وكان سعد بن أبى وقاص قد استعمل النعمان بن مقرن على كسكر يجبى الخراج ، ولكن النعمان رجل جهاد وقتال ، فلم يرض بهذا العمل ، ولم يطب به نفساً ، إنه يتوق إلى النزال ، فمال مثله ومال جمع المال ، فكتب إلى عمر : إنى قد تقت إلى الجهاد ، ومثلى ومثل كسكر كمثل رجل شاب إلى جنبه عومسة تلون له وتعطر ، فأنشدك الله لما عزلتنى عن كسكر ، وبعثتنى إلى جيش من جيوش المسلمين .

وصل رسول سعد الى عمر ، وبلغه كتاب النعمان ، فكتب عمر إلى سعد : « إن النعمان كتب إلىّ يذكر أنك استعملته على جباية الخراج ، وأنه قد كره ذلك ، ورغب فى الجهاد ، فابعث به إلى أهم وجوهك إلى نهاوند » ؛ وبينما كان سعد يجهز الجيوش التى ستخرج من الكوفة لقتال الأعداء ، كان أولئك النفر الذين خرجوا من الكوفة للإيقاع بسعد عند عمر يحادثونه ويخوضون فى سعد ؛ فقال أحدهم :

— إنه لا يقسم بالسوية .

وقال الثانى :

— إنه لا يعدل فى الرعية ، ولا يغزو فى السرية .

وقال الثالث :

— إنه لا يحسن الصلاة .

فأطرق عمر برهة ، ثم رفع رأسه وقال :

— إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم فى هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد ، وأيم الله لا يمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم ، وإن نزلوا بكم .

ونادى عمر محمد بن مسلمة ، وأمره أن ينطلق إلى الكوفة للنظر فى هذه الشكوى .

بلغ محمد بن مسلمة الكوفة ، وكانت تموج بالناس موجا ، وتعج عجيجاً ، وكانت الجيوش تتأهب للخروج ، وانطلق محمد إلى قصر سعد ، فدخل وأعلمه ما جاء به ، ثم أخذه وراح يطوف به على مساجد الكوفة يسأل الناس عنه علناً ، فليست المسألة فى السر من شأنهم ، وبلغا مسجداً ، فسأل محمد الناس :

— ما رأيكم فى سعد ؟

— لا نعلم إلا خيراً ، ولا نشتهى به بدلا ، ولا نقول فيه ، ولا نعين عليه .

فانطلقا إلى مسجد آخر ، وسأل محمد الناس :

— أنشد بالله رجلا يعلم حقاً إلا قال .

فقال رجل :

— إنه ليعدل فى القضية ، ويقسم بالسوية .

واستمر الطواف على مساجد الكوفة حتى انتهيا إلى بنى أسد ، قبيلة الجراح بن سنان ، وسألهم محمد عن سعد ، فقال أحدهم :

— إن الصيد يلهيه .

وقال آخر :

— إنه لا يقسم بالسوية ، ولا يحسن الصلاة ، ولا ينفر فى السرية .

فظهر الغضب فى وجه سعد وقال :

— إنى لأول رجل أهرق دما من المشركين ، ولقد جمع لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه ، وما جمعهما لأحد قبلى ، ولقد رأيتنى خمس الإسلام ، وبنو أسد تزعم أنى لا أحسن أصلى ، وأن الصيد يلهينى ؟ ! .

وأمر محمد سعداً أن يتأهب للانطلاق والقوم إلى عمر ليرى رأيه ، فترك عبد الله بن عبد الله بن عتبان خلفاً له على الكوفة ، وخرج تاركا خلفه الكوفة وجيوش المسلمين المتأهبة للخروج ، وبلغ القوم عمر فقص محمد بن مسلمة عليه ماورأى وما سمع ، فالتفت عمر إلى سعد وقال:

— يا سعد ويحك ! كيف تصلى ؟

— أطيل الأوليين ، وأحذف الأخريين .

— هكذا الظن بك يا أبا اسحاق .

وخرج سعد بريئاً مما ألصق به ، ولكن عمر شاء أن يبقيه فى المدينة فسأله :

— من خليفتك يا سعد على الكوفة ؟

— عبد الله بن عبد الله بن عتبان .

والتفت عمر إلى من حوله وقال :

— من يعذرنى من أهل الكوفة ، إن وليت عليهم التقى ضعفوه ، وإن وليت عليهم القوى فجروه .

فقال له المغيرة :

— يا أمير المؤمنين ، إن التقى الضعيف له تقواه وعليك ضعفه ، والقوى الفاجر لك قوته وعليه فجوره .

فنظر عمر إلى المغيرة وقال :

— صدقت ، فأنت القوى الفاجر ، فاخرج إليهم .

وأخذ سعد يقص على عمر أنباء تجمع الفرس ، وعمر مطرق يفكر ، وانتهى سعد من حديثه فاستأذن وانصرف ، وبقى عمر يفكر فى أمر الفرس وتجمعهم ؛ وفيما هو فى تفكيره ، أقبل رسول من الكوفة يحمل رسالة بأنه قد تجمع من الفرس خمسون ومائة ألف مقاتل ، وأنه ينبغى مبادرتهم الشدة ، فلما انتهى عمر من قراءة الكتاب التفت إلى الرسول وسأله :

— ما اسمك ؟

— قريب .

— ابن من ؟

— ابن ظفر .

فأشرق وجه عمر وقال :

— ظفر قريب إن شاء الله .

وأمر المنادى أن ينادى : « الصلاة جامعة » فأقبل الناس وكان أول من دخل المسجد سعد بن أبى وقاص ، فلما وقعت عين عمر على سعد تفاءل وقام على المنبر وخطب الناس وذكر لهم خبر تجمع الفرس واستشارهم ، وقال :

— هذا يوم له ما بعده من الأيام ، ألا وإنى قد هممت بأمر وإنى عارضه عليكم فاسمعوه ، ثم أخبرونى وأوجزوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، ولا تكثروا ولا تطيلوا فتفشغ بكم الأمور ، ويلتوى عليكم الرأى ، أفمن الرأى أن أسير فيمن قبلى ، ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلا وسطا بين هذين المصرين ، فأستنفرهم ثم أكون لهم ردءاً ، حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحب ، فإن فتح الله عليهم أن أضربهم عليهم فى بلادهم وليتنازعوا ملكهم .

فقام طلحة بن عبيد الله خطيبا ، فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ؛ أما بعد يا أمير المؤمنين ، فقد أحكمتك الأمور ، وعجمتك البلايا ؛ واحتنكتك التجارب وأنت وشأنك ، وأنت ورأيك ، لا نقبو فى يديك ، ولا نكل عليك ، إليك هذا الأمر ، فمرنا نطع ، وادعنا نجب ، واحملنا نركب ، ووفدنا نفد ، وقدنا ننقد ، فإنك ولى هذا الأمر ، وقد بلوت وجربت واختبرت ، فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيار

وانتهى طلحة من خطبته فجلس ، وساد المكان سكون وهدوء ، فقال عمر :

— إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا .

فقام عثمان بن عفان فتشهد وقال :

— أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشأم فيسيروا من شأمهم ، وتكتب إلى أهل اليمن ، فيسيروا من يمنهم ، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين الكوفة والبصرة ، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين ، فإنك إذا سرت بمن معك وعندك ، قل فى نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم ، وكنت أعز عزا وأكثر يا أمير المؤمنين ، إنك لا تستبق من نفسك بعد العرب باقية ، ولا تمتنع من الدنيا بعزيز ، ولا تلوذ منها بحريز ، إن هذا اليوم له مابعده من الأيام ، فاشهده برأيك وأعوانك ، ولا تغب عنه .

وجلس عثمان وعاد السكون إلى المكان ، فعاد عمر وقال :

— إن هذا يوم له مابعده من الأيام ، فتكلموا .

فقام على بن أبى طالب وقال :

— أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإنك إن أشخصت أهل الشأم من شأمهم ، سارت الروم إلى ذراريهم ، وإنك إن أشخصت أهل اليمن من يمنهم ، سارت الحبشة إلى ذراريهم ، وإنك إن أشخصت من هذه الأرض ،

انتقضت عليك الأرض من أطرافهـــا وأقطارها ؛ حتى يكون ماتدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات ، أقرر هؤلاء فى أمصارهم ، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق ، فلتقم فرقة لهم فى حرمهم وذراريهم ، ولتقم فرقة فى أهل عهـــدهم لئلا ينتقضوا عليهم ، ولتسر فرقة إلى اخوانهم بالكوفة مددا لهم ، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا : هذا أمير العرب وأصل العرب ، فكان ذلك أشد لطلبهم وألبتهم على نفسك ، وأما ماذكرت من مسير القوم ، فإن الله هو أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير مايكره ، وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، ولكنا كنا نقاتل بالنصر .

وجلس على ، وقام سعد فتطلع الناس إلى قاهر الفرس ، ومزلزل ملكهم ، وأصاخوا السمع ليسمعوا كلام أعلم الناس بحرب فارس ، فقال سعد :

— ياأمير المؤمنين خفض عليك ، فإنهم إنما جمعوا لنقمة ، إن هذا الأمر لم يكن نصره ولاخذلانه لكثرة ولا قلة ، هو دينه الذى أظهر ، وجنده الذى أعز ، وأيده بالملائكة حتى بلغ مابلغ ، فنحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده .

جلس سعد وقد سرى فى نفوس الناس اليقين ، وانصرفوا وكلمات سعد ترن فى آذانهم « نحن على موعود من الله ، والله منجز وعده وناصر جنده .

* * *

أرسل عمر إلى النعمان أن يخرج إلى نهاوند ، وأمره أن يسير بأمر الله ويعون الله ، وينصر الله بمن معه من المسلمين ، وكتب إليه : إن رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار ، وكتب إلى الأمصار أن يسيروا

الجند لموافاة النعمان بنهاوند ، وبقى سعد فى المدينة يتنسم أخبار المعركة، ومرت الأيام ، وراح سعد يخرج إلى ظاهر المدينة فيتنطس الأخبار، وفى ليلة من الليالى مر به راكب يريد المدينة ، فسأله سعد :

— ياعبد الله من أين أقبلت ؟

— من نهاوند .

— ما الخبر ؟

— خير ، فتح الله على النعمان ، واستشهد ، واقتسم المسلمون فىء نهاوند ، فأصاب الفارس ستة آلاف .

فأطرق سعد ، وحزن على النعمان ، وغامت عيناه بالدمع ، وراح يقاوم حزنه ، ولكن انهرمت الدموع من عينيه ، فبكى حتى بل لحيته .

الفصل الثلاثون

مفترق الطرق

« ما حدثتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتي »
عمر بن الخطاب

ابتدأ مولد النهار ، واعتلى المؤذن المسجد ، وارتفع صوته بالأذان يدعو الناس إلى صلاة الصبح ، فخرج الناس من دورهم ، وانطلقوا إلى المسجد ليصلوا خلف عمر ، انطلقوا بنفوس هادئة ، وما دار بخلدهم أن هذا اليوم يختلف عن سائر الأيام ، وما دروا أنهم بعد قليل سينقلب هدوؤهم صخباً ، وطمأنينتهم قلقاً ، ولو اخترقت أبصارهم حجب الغيب القريب لعلموا أن هذا اليوم يوم فاصل بين عهدين ، يوم له مابعده .

وخرج عمر من داره ، وانطلق إلى المسجد لايلوى على شيء ، انطلق ليحمل عبء المسلمين في جميع الأمصار ، وما علم أنه عما قليل يوضع عن كاهله ذلك العبء الجسيم ، ودخل المسجد وأم القوم : وقبل أن يكبر التفت خلفه فرأى المسلمين قد سووا الصفوف ، وسدوا الفرجات ، فطابت نفسه ، وكبر وهم بقراءة القرآن ، ولكن رجلا دخل في الناس ، وراح يشق الصفوف حتى بلغ عمر ، فراح يطعنه بخنجر معه ، وشاهد الرجل الواقف خلف عمر ، مايفعل القاتل ، فانقض عليه ، ولكن القاتل عاجله بضربة سقط بعدها الرجل مجدلا ، وسقط عمر ، فحدث هرج ، وماج الناس بعضهم في بعض ، وانقضوا على القاتل وأخذوا يتلابيه ، وراحت دماء عمر تتدفق ، فالتف الناس حوله ، ولكن عمر سأل :

— أفى الناس عبد الرحمن بن عوف ؟

— نعم يا أمير المؤمنين ، هو ذا .

وتقدم عبد الرحمن من عمر الذى قال له

— تقدم فصل بالناس .

وتقدم عبد الرحمن وجعل يصلى بالناس ، وعمر طريح ينزف دمه ، وخفف عبد الرحمن فى الصلاة ، ولما قضيت أسرع الناس إليه ، وحملوه إلى داره .

انطلق أصحاب عمر به إلى الدار ، وراح الناس يتحدثون عن أبى لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة قاتل عمر ، فهذا يذكر أصله ، وذاك يحدث عن سبب حقده على عمر ، وثالث يقول إن عمر خرج يوماً يطوف فى السوق ، فلقيه أبو لؤلؤة فقال : « يا أمير المؤمنين أعدنى على المغيرة فإن على خراجاً كثيراً ، قال عمر : « وكم خراجك ؟ » قال : « درهمان فى كل يوم » قال عمر : « وما صناعتك ؟ » قال : « نجار نقاش حداد » قال عمر : « فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، قد بلغنى أنك تقول لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح لفعلت ، قال : « نعم » قال عمر : « فاعمل لى رحى » قال « لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب » وما هو العبد ينفذ وعيده ، لقد طعنه طعنات سيتحدث بها من فى المشرق والمغرب .

وضع عمر فى فراشه ، والدم ينزف منه ، فالتفت إليه من عنده وقالوا له :

— يا أمير المؤمنين لو دعوت الطبيب .

— افعلوا .

فأرسلوا فى طلب طبيب من بنى الحارث فجاء فسقاه نبيذا ، فخرج النبيذ مشكلا فقال :

ـ اسقوه لبناً .

فسقوه لبناً ، فخرج اللبن أبيض ، وبان الضعف على عمر . فقال له بعض من عنده :

ـ يا أمير المؤمنين لو استخلفت ؟

ـ من أستخلف ، لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً استخلفته ، فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة.

فقال رجل :

ـ أدلك عليه ، عبد الله بن عمر .

فظهر الضيق في وجه عمر وقال :

ـ قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ، ويحك ! كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ، لا أرب لنا في أموركم ، ماحدثها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي ، إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شراً فشر عنا إلى عمر ، يحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد ، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي ، وإن نجوت كفافاً ، لا وزر ولا أجر ، إني لسعيد ، وأنظر فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ، ولن يضيع الله دينه .

وخرج الناس من عند عمر ولم يعهد ولم يول أمر المسلمين أحدا ، واشتد الوجع عليه ، ولم يكن يفكر في نفسه ، بل كان يفكر في المسلمين الذين سيتركهم خلفه ، فرأى أن يدعو أصحاب النبي الذين توفي وهو عنهم راض ، فقال لعبد الرحمن بن عوف ، وكان عنده :

ـ ادع لي علياً وعثمان والزبير وسعداً .

فأرسل عبد الرحمن في طلبهم فلما اكتمل عقدهم ، قال لهم عمر

ـ إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا

الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض ، إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم ، فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها ، فتشاوروا ، واختاروا رجلا منكم .

وهموا بالانصراف ، ولكن عمر قال لهم :

— لاتدخلوا حجرة عائشة ، ولكن كونوا قريباً .

ودخلوا حجرة قريبة ، وراحوا يتناجون ، وراح الدم ينزف من عمر ، وارتفعت المناجاة إلى نقاش ، ثم انقلب النقاش الهادىء إلى نقاش حاد ، فتضايق ابن عمر فصاح :

— سبحان الله : إن أمير المؤمنين لم يمت بعد .

وبلغ صوت عبد الله بن عمر أذن أبيه ، فأشار عمر لهم أن اقبلوا فلما جاءوا قال لهم :

— ألا أعرضوا عن هذا أجمعين ، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم فى الأمر ، فإن قدم فى الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم ، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم ، ومن لى بطلحة ؟

فقال سعد :

— أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله .

— أرجو ألا يخالف إن شاء الله ، وما أظن أن يلى إلا أحد هذين الرجلين : على أو عثمان ، فإن ولى عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولى على ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق ، وإن تولوا سعداً فأهلها هو ، وإلا فليستعن به الوالى فإنى لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ، ونعم ذو الرأى عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد ، له من الله حافظ ،

فاجتمعوا منه . ودعا عمر صهيباً وأمره أن يصلى بالناس ثلاثاً بعد موته حتى يتفقوا على خليفه من بينهم ، وأرسل إلى عائشة يستأذنها فى أن يدفن بجوار صاحبيه الحبيبين محمد صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر خليفة الرسول ، فأذنت له فاطمأنت نفسه ، واشتد به الوجع ، ودب فيه الوهن ، فراح يتمتم مستغفراً ربه ، ثم شخص بصره ، وفاضت روحه صاعدة إلى السماء راضية مرضية .

وبلغ الناس النبأ الفاجع ، فغشى وجوههم الإظلام ، وانطلق سعد وعلى وعثمان وعبد الرحمن والزبير إلى داره ليجهزوه ، وخيم الحزن على المدينة ، وأخذت الناس تندبه وتبكيه ، وبكت باكية عليه فقالت :

ـــ واحرى على عمر حرا انتشر حتى شاع فى البشر .

ثم جهاز عمر ، فحمله الناس إلى المسجد ، وسار سعد وعلى وعثمان والزبير والناس خلفه ، وقد بان الحزن فى وجوههم ، ووضع فى المسجد ، وتقدم على ليصلى عليه ، وتقدم عثمان ليصلى عليه ، فالتفت إليهما عبد الرحمن ابن عوف وقال :

ـــ لا إله إلا الله ، ما أحرصكما على الإمرة ، أما علمتما أن أمير المؤمنين قال . ليصل بالناس صهيب »

فتنحى على وعثمان ، وتقدم صهيب ، وصلى عليه ، ولما انتهى من صلاته تقدم الخمسة ، على وعثمان وسعد والزبير وعبد الرحمن وحملوه ، ونزلوا به القبر .

قبر عمر ، وخرج الخمسة من قبره ، وراح على ينفض رأسه ولحيته ثم قال :

ـــ يرحم الله بن الخطاب ، لقد ذهب بخيرها ونجا من شرها

وانطلق على وهو لا يشك أن الأمر يصير إليه ، وانطلق سعد يفكر فى أمر هذه الشورى .